10 علماء العرب

الإدريسي

أبو الجغرافيا

تأليف : سليمان فياض

رسوم : اسماعيل دياب

منشورات ANEP

علماء العرب

الإدريسي

أبو الجغرافيا

تأليف : سليمان فياض
رسوم : اسماعيل دياب

الكتاب: الإدريسي
سلسلة علماء العرب
المؤلف: سليمان فياض
رسوم: اسماعيل دياب
تصميم الغلاف: بديعة ميدات
الناشر: منشورات ANEP

50، شارع خليفة بوخالفة – الجزائر
الهاتف/فاكس: 213 21 23 89 61 / 213 21 23 64 85
الهاتف: 213 21 23 68 32 / 213 21 23 89 16
فاكس: 213 21 23 64 90
e-mail: editionsanep@yahoo.fr

الطبعة الأولى 2007
ISBN : 978-9947-21-329-2
Dépôt légal : 1524-2007

جميع الحقوق محفوظة لمركز الأهرام للترجمة والنشر

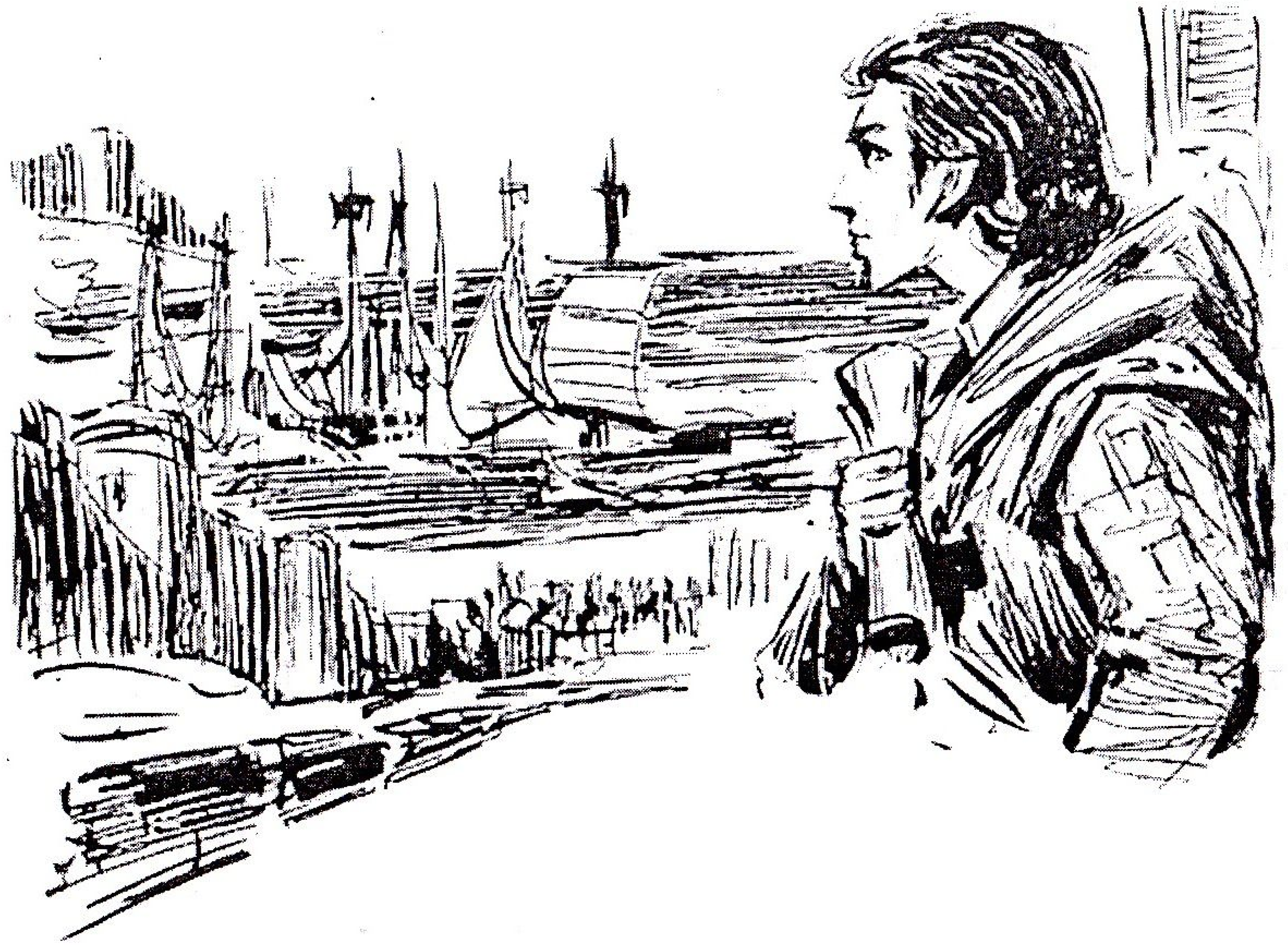

سَليلُ الأشرافِ

في نورِ الشمسِ، وضياءِ القمرِ، كَانَ الفتَى "مُحمد" يرقُبُ السُفنَ رَائحةً غاديةً في البحرِ الأبيضِ، يَميلُ بعضُهَا إلى مَرسَى "سَبَّة"، ويُواصل بعضُهَا رحيلَهُ شرقًا إلى موانئ الإسكندريةِ، واللاذقيةِّ، وعكًّا، وغربًا عَابراً بوغازَ طارقٍ إلى الموانئ الغَربيةِ بأوروبَا وإفريقيَا.

كانَ "مُحمدٌ" قَدْ حفظَ القرآنَ، وعرفَ مبادئَ الدين، ويشعرُ دائمًا، في أعماقه، أنه سليلُ أسرَةِ الأدارِسةِ الأشرَافِ، الذينَ أنشأُوا لَهم دَولةً بالمغربِ في عَصرِ هارون الرّشيد، ودولةً بالأندلسِ، هي دَولةُ بني حَمّود، وكان يُدرك، في العقد الثاني من عُمرِه، أن مَجدَ آبائه يُوّلى، وتغربُ شمسُه، مثلمَا تَغربُ شُموس دُولٍ عربيّة كَثيرة، في المَشرق والمَغرب. وأنّهُ لم يَبقَ لأحَدٍ منَ الأدَارسَةِ من طَريقٍ سوَى طَريقُ العلمِ، ولقاءِ العُلماءِ ورؤيةِ أرضِ اللهِ.

وكَثيرًا ما كانَ محمدُ يتجوّلُ في أنحَاء "سبتةٌ". وكَانت "سبتةُ" قائمَةً فوقَ هضبَات بشبْه جَزيرَة، يُحيطُ بهَا البَحرَ من ثَلاث جهات، على بُعد عَشرة أميَال، جنُوبي جبلَ طَارقٍ. يَرى مَرسَى مينئهَا الذي يَقولُ البَحّارةُ إنّه لا مَثيلَ لهُ بينَ مَراسيِ وَموانِ السّفنِ في البَحرِ المُتوسط، ويَرى سُورها الحَجرى، وبُيوتَها الحَجريّة، ومَآذنَ مساجدُها، وطُرُقاتها الكَثيرة التّعرجِ، وكَأنّها قدْ استَعدّت أبدًا لمواجهةِ الغُزاةِ في كلّ مُنعطَفٍ.

فيمَا مَضَى، كَانَ اسم "سبْتة" هو: "سَابيتُوم"، عندمَا أنشأَها الرّومَانُ كقلْعة عَسكرية. وفيمَا مَضى، قبلَ أربَعَةِ قُرون، انتزعَ المُسلمونَ بقيَادةِ "مُوسَى بنِ نَصيرٍ" هذه المدينَة، من أيدي

حُكّامها من "القُوط" الأسْبَانِيّين. ولَقدْ ظَلّتْ هَذه المدينةُ مَوضعًا للنّزاعِ بينَ حُكّامِ الأندلس، وحُكام المـغرب. وبلغَ من عَنايةِ الخليفَة الأندلسِيّ "عبدُ الرحمنِ الناصرِ" بهَا، أنّهُ شَيّدَ حَولهَا سُورًا منيعًا من الحجَارة.

وفي هذهِ المدينة، وُلدَ "محمدُ بنُ محمدٍ بن عبد الله" الإدْريسي. عامَ أربعْمائة وثلاثة وتسعينَ هجريَة، ألف ومَائة ميلادية، وعاشَ طُفولتُهُ وصِباهُ، وشَبابَهُ الأول، يَصعدُ هضَابهَا، ويَرى أمْواجَ البَحرِ، وزُرقَةَ السّماءِ، ويَرنُو إلى الآفَاقِ الفَسيحَة في مَدى البَحرِ والصّحراءِ.

وصيّةُ أبٍ

كانَ مُحمدُ قَد بلغَ منَ العُمرِ ستَة عشَرَ عامًا، حينَ سَمعَ أبيهِ يقُولُ لهُ :

- حانَ الوَقتُ يا بُنيَّ، لترحلَ إلى مَدينة قُرطبة بالأندلسِ، وتَعرفَ بهَا، في جامعِ قُرطبَة، علمًا أكثرَ وأغزرَ، على أيْدِي العُلمَاءِ.

وأدركَ مُحمدُ أنَّ حُلمهُ بالأسفارِ يُوشكُ أنْ يَتحقّقَ، وأن تَوْقَهُ علَى الاستقلالِ بأمرِه يُوشِكُ أنْ يبدأَ. وقالَ لهُ أبُوه:

- تذكّرْ دائمًا يا مُحمدُ أنّكَ من الأشْرافِ، لأنكَ من الأدَارِسةِ.

فقالَ لهُ محمدٌ :

- أعرفُ ذلكَ. فَجدّي الحَادي عشَر، اسمهُ إدرِيس، وهو ابْنُ الحَسَنِ بن الحسنِ بنِ الإمَامِ علَيّ بن أبي طَالب.

ومسح أبوهُ بيدِه على رأْسه، وقالَ له بحزْمٍ :

- تخلّق إذنْ بخُلُقِ الأشْرَافِ حيثُما كُنتَ. انجُ بنفسكَ من السِّيَاسة، واطلبْ مجْدَ العلم، ولا تقبلْ لنفسكَ عَملاً هوَ دُونَ قدرِكَ، ولا تَجلسْ مَجلسًا هو دُونَ فَضْلكَ، ولا تَرضَ بِمنزلة هي دونَ منزلتِكَ.

طالبُ علمٍ رحَّالة

نزلَ محمدٌ مَدينةَ "قُرطبَة". كانتْ مَا تَزالُ حَاضرةَ العلمِ والثّقَافَة غربِي العَالَم الإسْلامي، ووَاحةً للمعرفَة والفَنِّ في أُورُوبَا بأسْرِهَا. وقَابَلَ مُحمدٌ أقَاربَ لهُ منْ أقَاربِه العَديدِينَ في قُرطُبَة، فأَضَافُوهُ شُهورًا، ثم أسكَنُوه بَيتًا بِه بُستَانٌ عَامرٌ

بأشجارِ النَّخيلِ واللوزِ والزُّهورِ. وأخذَ يتردَّدُ علَى حلقاتِ مَسجدِ قُرطبَةَ الجامعِ، ويَجلسُ إلى العُلماءِ وبَينَهم فُقهاءٌ ومُحدِّثُونَ، وفَلاسفَةٌ، ورياضيُّونَ، وجُغرافيُّونَ، وفَلكيُّونَ. ودُهشَ مُحمدٌ إذا رأَى أطفالَ المَدارسِ، يَدرسُونَ الجُغرافيَا علَى خرائطَ، ويُديرُونَ بَينَ أيديهِم كُراتٍ أَرضيةٍ، عليهَا اليَابسُ والبَحرُ، والأقاليمُ والمُدنُ.

وتُتاحُ لمحمدٍ فُرصٌ للانقطَاعِ عَنِ الدَّرسِ شُهرًا أَو شُهُورًا، فيَشرَعُ في الرِّحلَةِ والسَّفَرِ، يَجُوبُ ديارَ الأندلسِ (أسبانيَا والبُرتُغالَ الآنَ) مدُنَهَا وقُراهَا وجبَالَهَا وأنهارَهَا، يَرَى كلَّ شيءٍ بعيْنِيه، ويَسمعُ كلَّ شيءٍ بأُذنيهِ. زَارَ مَدينةَ "لَشْبُونَة"، ورَأَى حِصنَ المَعدنِ المُقابلَ لَهَا، والمرآةَ التي تدُورُ أبدًا فِي قِمَّةِ بُرجِهَا، تَعكِسُ ضَوءَ الشَّمسِ. بلْ لَقدْ عَبرَ البَحرَ وزَارَ سَواحلَ انجلترَا الغَربيةَ، واجتَازَ الجبَالَ والأوديَّةَ، وزَارَ سَواحلَ فرنسَا الغَربيَةَ والجَنُوبيَّةَ. وتعلَّمَ اطرافًا مِنَ الحَديثِ بالفرنسيَةِ والانجليزيةِ واللاتينيّةِ. وكانَ أبدًا يَصحبُ مَعهُ خَادمًا يُدبِّرُ لَهُ أَمرَهُ، وَجاريَةً تَطهُو لَهُ طَعَامهُ.

وكلَّ عامٍ كَانَ "محمدٌ" يَعودُ إلى "سَبْتَه" يَرى أَهلَهُ، ويَتزوَّدُ بالمَالِ، ويُسارِعُ بالسَّفرِ، يَجُوبُ المَدائنَ والقُرَى فِي المَغربِ العَربيِّ الكَبيرِ، قَبلَ أنْ يَعُودَ إِلَى قُرطُبَةِ مَرةً أُخرَى.

وعامًا بعدَ عامٍ، كَانتْ نَفسُ "مُحمَدٌ" تُراوِدُهُ، وَهو في قُرطبَة، وهُو في "سَبته"، لزيارَةِ جَزيرَةِ "صقليَةٌ"، وكَأنَ شيئًا خفيًا يَجذبُهُ إليهَا. وكَانَ يَعْلَمُ أَنَ قبَائلَ "النُّورمَان"، قَدْ احتلَّتهَا، إثْرَ غزْوهَا للجنُوبِ الإيطَالِي، قَبْلَ أربعينَ سَنةً مِنْ ميلادِه، وأَنَ لهُ فيهَا أَقارِبَ، نَزَحُوا إليهَا، إثرَ انهيَارِ دوَلِ بَني حمُودَ منَ الأدارِسَةِ بالأندلُسِ، لَكنَّهُ كَانَ يَخشَى القيَامَ بهذهِ الزِّيارَةِ، وغُزَاةُ النُورمَانِ يَحتلُّونَهَا، ويُصَادِرُونَ أراضِي الفلاحِينَ المُسلِمينَ فِي قُراهَا.

الخَوْفُ فِي الوَطَنِ

وعادَ مُحمدٌ إِلَى سبتَة، وَقد سئِمَ الإقَامَةَ فِي الأندلُسِ، ولَمْ يَعُدْ ثمَّةَ ما يَطلُبُه من العلَمِ بهَا، ولاَ من الأماكنِ والمُدنِ ما يَزُورُه. وكانَ قَدْ بلَغَ مِنَ العُمرِ سَبعًا وثَلاثينَ سَنةً.

وَعكفَ مُحمدٌ علَى أوراقِه، يُراجِعُ ويُنظِّمُ ما كتبَهُ في أسفارِه عَن المدائنِ وَالقُرى التي زَارهَا، والأنهارِ التي عبرهَا، وَالوديَانِ التي اجْتازَهَا، وَالجبَالِ التي رقَى سُفُوحَهَا وذُرَاهَا. ويَحكي لأهلِ سبْتَة العُلماءِ منْهُم وغيرَ العُلماءِ عجَائبَ الأخبَارِ والأسفَارِ.

ولَمْ يكَدْ يمرُّ عَامٌ علَى مُقامه في سَبته، حتَى رَاودَهُ الحَنينَ إلى الأسفَارِ، وقعَدتْ بهِ عَن الارْتحَالِ قلَّةُ المَالِ، فَقدْ ودَّعَ أبوَاه

الدُّنيا، وتَفرَّقَ إخوتُه في بلادِ المَغربِ، وجُزرِ البَحرِ المُتوسطِ، سَعيًا وراءَ مَطَالبِ العَيْشِ، وَخوفًا منْ الاتهامِ يومًا، بأنَّهم يسعَونَ، مثلَ أجدادهم، لإقامَةِ دَولة من دُولِ الأدارسَةِ مرةً أخرَى، في المغْربِ، أوْ في الأندلُس. وكَانَ يُدركُ أنَّ عليه أنْ يرحلَ مثلما رَحلُوا، خوفًا من الوشَايةِ والاتهامِ، بأمرٍ لم يُفكِّرْ فيه لحظَةً، ولكنْ، أيْنَ يَذهبُ ؟ وكَيفَ ؟ ومنْ أينَ المالُ ؟ وكيفَ يأمَنُ منْ طُولِ البَقَاءِ والكُلُّ يُلقبُهُ بِلقبِ: "الشَريفُ الإدْرِيسِي".

وَوَفدَ إلى سبْتهِ، قَريبٌ لهُ، مُقيمٌ بصقلّيَة، إسمُهُ: "أبُو عبدَ اللّه مُحمدُ بنُ أبي القَاسمِ بن حمّودَ". وجَاءَ قَريبُهُ لزيارَته، وَجلسَا معًا في شُرفَةٍ بقصرِ أبيه، يُحدِّثُهُ هذا عَنْ أسفارِهِ، ويُحدثُه ذاكَ عَنْ صَقليَّةَ، وكأنَّهُ كَانَ يُقدمُ له طَوقَ النَجاةِ، بِحديثِه عَنْ صَقليةَ.

بَيْنَ ملكٍ وَملكٍ

كَانَ العَربُ قَدْ فَتحُوا صَقَّليَةَ، واستَقرُّوا بِهَا مَائَتيْنَ وَخمسينَ سَنَةَ، وَقدَّمُوا للحَيَاة عَلَى أرضِهَا عَشرَةَ أجْيَالٍ، وَجَعلُوا من صَقليَّةَ مُلْتقًى لِحضَارتَيْ الشَرقِ وَالغَربِ، وَالعَالمِ القَديمِ والجَديدِ، وَصَارتْ صَقلِيَةُ عَلَى أيديهم وَاحِدَةً مِن النَوافِذِ الكُبرَى، لإخرَاجِ أُورُوبَا من ظُلمَاتِ العُصُورِ الوُسطَى.

وَجَاءَ النُّورمَانِ الغُزاةُ، وَفتحُوا فِيمَا فَتحُوا جَزيرَةَ صقلِّيَةَ فِي البَحرِ المُتوسِّطِ، قَبلَ أَنْ يُولدَ الشَّريفُ الإدريسي بِأربعينَ سَنَةً.

وَلَقدْ فَرَّ عَديدٌ من العَربِ المُسلمينَ من الجَزيرَةِ إثرَ الغَزْوِ النُّورمَاني الذي قَادَهُ القَائدُ رُوجَرْ، وَنَصَّبَ نَفسَهُ مَلِكًا مُؤَسِّسًا لِدولةِ النُّورمَانِ فِي صقلّيةٍ. لكنَّ أكثرَ العَربِ المُسلمينَ أصرَّ عَلى البَقَاءِ فِي الجَزيرَةِ التي كَانَتْ لَهُم ولآبَائِهِم وأجدادِهِم، وَاحتَمَلُوا صُورًا من الاضطِّهَادِ وَالمُصادَرَةِ لِلأرَاضِي، خَاصَةً فِي شَمَالِ صقليَّةَ، عَلَى أيدِي رِجَالِ الدِّينِ المسيحِي، وَأنصَارِهِم مِن القُوَّادِ النُّورمَانيِّينَ.

وجَاءَ حُكمُ ابنِهِ المَلِكُ رُوجَرْ الثَانِي، فسَارَعَ بِالمُسَاوَاةِ فِي الحُكمِ بينَ الرُّومِ وَالفرنجِ الفَاتحِينَ، وَالعَربِ سُكَّانِ الجَزيرَةِ، ومَنَحَهُم الحُريَاتِ الدينيةِ والاقتِصاديةِ التي كَانَتْ لَهُم من قبلُ، وَأَوقَفَ مُصَادَرَاتِ رِجَالِ الدينِ لِلأرَاضِي، بَل وَشَجَّعَهُم عَلَى الاستِثمَارِ لِلأموَالِ، وَالتقدُّمِ العِلْمِي.

وَبَلَغَ مِنْ حِرصِ عُقلاءِ النُّورمَانِ، عَلَى بَقَاءِ العَربِ المُسلمينَ فِي الجَزيرَةِ، عُلماءَ وتُجارًا ومُزارعِينَ وَحرفِيِّينَ، أَنَّهم تَعلَّمُوا العَربيةَ قِراءَةً وَكتابَةً، وَصَارُوا يَطرَبُونَ لِسماعِ شِعْرِ العَربيةِ

وأدَبِهَا. وظلّتْ العَربيَةُ هِيَ لُغةُ الدَوَاوِينِ وَرسَائِلِ الحَاكِمينَ، وَصَارتْ النُّقُودُ تُسكُّ وعليهَا شَارَتَا الإِسلاَمُ وَالنَّصرانيَةُ، وَعِبارَةُ "لاَ إلهَ إلاّ اللّه مُحمدٌ رَسُولَ اللّه". وَكَانَتْ عَلامَةُ المُلكِ بِالعَربيةِ هِيَ: "الحَمدُ لله حَقَّ حَمْدِهِ". وَلقدْ أَبقَى النُّورمَانَ عَلَى حُكَامِ المُسلمينَ وَقوَادِهِم فِي مَنَاصِبِهِم، مَعَ شُيُوخِهِم وَقُضَاتِهِم، وَظلَّتْ مَوَارِدُ التِجَارَةِ فِي يَدِ كِبَارِ رِجَالِ الأعمَالِ من العَربِ المُسلمِينَ.

وَلَمْ تَخْلُ هَذه المُعامَلَةُ للعَربِ، مِن ضَيقِ رِجالِ الدِّينِ النُّورمَانِيينَ بِالمُلكِ رُوجَرَ الثَانِي، حتَى اتَّهمُوهُ بِأنَهُ اعْتَنَقَ دِينَ الإِسلامِ، وَرَاحُوا يُدلِّلُونَ عَلَى ذلكَ بِحمايَتِهِ لَهُم، وَلِينِهِ فِي مُعَاملتِهِم، وَإنشَائِهِ دِيوَانًا لِلمظَالِمِ يَنْظُرُ فِي شَكَاوَى المَظْلُومِينَ مِنهم، وَإبقَائِهِ عَلى دِيوانِ الطَّرَازِ المَشْهُورِ بِصُنعِ أَرْدِيةٍ حَريريَّةٍ جَمِيلَةٍ، مُزَيَنَّةً بِزخَارِفَ عَربيةٍ إِسلَاميَّةٍ، وَحِرصِهِ عَلى أَنْ يَضَعَ فَوقَ ثِيَابِهِ المَلَكِيَةِ عبَاءَةً مُطَرَّزَةً بِزخَارِفٍ عَربِيَةٍ، وَمُجالَستِهِ لِعُلمَاءِ العَربِ المُسلمِينَ كُلَّ لَيلَةٍ، يَتحدَّثُ إِليهِم فِي أُمُورِ العِلمِ وَالمَعرِفَةِ، وَتَشبّهِهِ بِمُلوكِ الشَّرقِ فِي بلاَطَاتِهِم وَقُصُورِهِم.

دَعْوَةٌ مَفْتُوحَةٌ

وقالَ أبُو عَبدَ اللّه لِلشريفِ الإدريسِي:

– هؤلاَءِ الجُهلاءِ مِنَ النُّورمَانِ لمْ يُدرِكُوا قطُّ مَا يُدرِكَهُ المَلكُ رُوجرَ الثَانِي، فَبدونِ العَربِ فِي الجَزيرَةِ ستَعُودُ الجَزيرةِ إلى التخلُّف. وَالملكُ رُوجرَ الحَريصُ على تَثْقيف نَفسه بنفسه، وَالذي يَعرفُ ثمرَات وُجُود العَربِ في صَقلِّية، يَعرفُ أن جَزيرَتَه مُلتقى حضَارتَين: إحداهُمَا سوفَ تَغربُ شَمسُهَا، وَالأخْرَى تَقترِبُ من لَحظَةَ الفَجْرِ، وأنَّ عَليهِ أن يكُونَ موئلاً ومُلاذًا لِلحريةِ فِي جَزيرةِ صَقليَةِ.

ثُم قَالَ أبُو عَبدَ اللّه لَهُ:

– وَمَا راءَ كَمَنْ سَمعا. تَعالَ إلى صَقليّة لتَرى بعينيكَ صدقَ مَا أقُولهُ لَكَ. وَكَثيرُونَ من الأدَارسَةِ مُقَرَّبُونَ منَ المَلك رُوجَر الثَانِي، مِثلَمَا أنَّه هُو نَفسهُ مُقرَّبُ عِندَهُ.

فَقَالَ الشَريفُ الإدرِيسِيّ لَهُ فِي دَهْشَةٍ:

– كَيفَ ؟ ألاَ يَخافُ منكُم لأنَ تَسْعَوْا إلى إقامةِ دَولة لِلأدارسَة في صَقِلِيَّة ؟

فضَحكَ أبُو عَبدُ الله، وَقَالَ:

– إنَّهُ أكبَرُ وَأقوى منْ أنْ يَظُنَّ ذَلكَ. فَالحُكمُ قَدْ استَقَرَّ لِلنّورْمَانَ فِي صَقلية لِزمنٍ طَويلٍ قَادم، ولأنَ يَكُونَ الأدَارِسَةَ بالقُرب منهُ، فِي صَقليَة، يُغدِقُ عَليهِم العَطَاءَ خَيرٌ مِن أن يَكُونُوا بَعِيدينَ عَنهُ.

وصَمتَ الرَجُلانِ في لَيلَةِ قَمرية، تَنعكسُ فيهَا أنوَارُ القَمرِ عَلَى ذُؤَابَاتِ (قِمَمْ) أمْوَاجِ البَحرِ، وَقَطعَ أَبُو عَبدَ اللهِ الصَمتَ بِقَولِهِ:

– سَأَعُودُ إلَى صَقليَةَ. وَفكّرَ فِي القُدومِ إليْنَا. وَلَسوفَ نَترَاسَلُ إلى أنْ نَلْتَقِي.

كانَ أَبُو عَبدَ اللّهِ يُؤثِرُ ألاَّ يَصحبَ الشَريفَ الإدريسيِّ مَعَهُ فِي عَودَتِه إلى صَقليَّة، وَأنَ يكُونَ قدومُهُ إلى صَقلية بدَعوةٍ لَهُ من المَلكِ رُوجَرَ الثَاني نَفسَهُ، بَعدَ أنْ يَكونَ قَد حَدَّثَهُ عَنهُ، فَينزِلُ إلى صَقلِيَةِ كَشريفٍ مِنَ الأشرَافِ، وَعالَمٍ مِن العُلَماءِ.

البداية

قالَ المَلكُ رُوجَرُ الثَّاني لأبي عبدَ اللهِ في دَهْشةٍ:

- كَيفَ يَكُونُ صاحِبُكَ بِهذَا العلمِ بالبُلدانِ والنباتِ والطبِّ، ولا تأْتِي بِهِ مَعكَ إلينا؟

فَقالَ لَه أبُو عبدُ اللّه :

- أيُّها المَلكُ. ما كَانَ لمثْله أنْ يَأتي وَحدَهُ إلى بلادِكَ. وإنْ رَأيت حاجَتُكَ إليه، فادْعُهُ بِنفسِكَ، حتى لا يَخشَى أنْ تَظنُّ به سَوءًا لَوْ زَارَ صقليَةَ بِغيرِ إذنِكَ.

ولمْ يَنَمِ المَلكُ رُوجرَ الثَّاني لَيلَتَهُ حتى أمْلَى رسالَةً وجَّهَها إلى الشَريفِ الإدريسي في سَبتِه، حَملَتَها إحدَى سُفُنِه، وعليها بعثَةٌ مِن رجَالِه، تُرافِقُ الإدرِيسي وأهلَ بَيْتِه، في قُدومِه إلَى صقلِيةِ.

مشْرُوعٌ ملَكِي

استقبَلَ المَلكُ بِنفسه الشَرِيفَ الإدرِيسِيّ. عَلَى بَابِ قَصرِهِ في "بالرَم" عَاصمة صقلية. وصَحبه إلى قَاعة عرْشه، وجلسَا معًا فِي مكانٍ آخرٍ يَتحدثَان وحِيدَين، بعدَ أنْ خلاَ لَهُما المَجلسُ.

وَقالَ لَه المَلك رُوجر فيمَا قَالَ:

- أنتَ من بيتِ خلافةٍ. ومتى كنتَ بينَ المُسلمينَ عَمِلَ مُلوكُهم على قَتْلِكَ. ومتى كُنتَ عِندي أَمِنْتَ على نَفْسِكَ.

وسَمِعا تَسابيحَ الفجرِ تتردَّدُ من مئذنةِ المسجدِ في سماءِ "بالرمِ" فافترقا، إلى لقاءٍ آخرَ في اليومِ الجديدِ.

كانَ الملكُ رُوجرُ قدْ أفردَ قصرًا بخدمِهِ وحَشمِهِ، ليُقيمَ بهِ الشريفُ الإدريسيّ هُوَ وأهلُهُ، وأجرَى عليهِ راتبًا شهريًا لا ينالُ مثلَهُ سوى العُظماءِ. وتعدَّدتْ بينهُما اللقاءاتُ، وتوالتِ الأسابيعُ والشُّهورُ، والملكُ لا يسأمُ منَ الجُلوسِ إلى الشريفِ الإدريسيّ، وحكاياتِهِ لهُ عنْ أخبارِهِ، وأسفارِهِ، والعجائبِ التي شاهدَها في رحلاتِهِ. لكنَّ الشريفَ الإدريسيّ كانَ رجُلَ علمٍ، ولمْ يكنْ سميرَ مُلوكٍ، فتاقتْ نفسُهُ إلى الأسفارِ، وتمنَّى أنْ يُنفقَ الملكُ رُوجرُ على أسفارِهِ، وليُؤلِّفَ كتابًا كبيرًا عنِ الممالكِ والمدائنِ، وأقطارِ الأرضِ وأهلِها، ويُزوِّدَهُ بالخرائطِ. وباحَ الإدريسيُّ بما في نفسِهِ للملكِ ذاتَ ليلةٍ، فقالَ لهُ الملكُ رُوجرُ:

- لا أُحبُّ أنْ أُفارقَكَ وتُفارقَني. وأنتَ فردٌ واحدٌ، ومهما سافرتَ أو ارتحلتَ فسوفَ تكونُ أخبارُكَ ومشاهداتُكَ أخبارَ ومُشاهداتِ رجلٍ واحدٍ. أليسَ كذلكَ يا شريفُ؟

فقالَ لهُ الشريفُ الإدريسيّ :

- بلَى. لكنَّني لا أفهمُ ما ترمِي إليهِ أيُّها الملكُ.

فقالَ لهُ الملكُ : - ماذا لو جعلتُ مائةً يُسافرونَ في أرجاءِ الأرضِ، بدلاً منكَ. ألا نعرفُ أكثرَ عنْ الأرضِ، وتختصرُ الوقتَ، ولا تُضيِّعُ عشراتٍ منَ السنينَ، قدْ لا يتَّسعُ لها عُمرُكَ ولا عُمري؟

فقالَ الإدريسيّ وقدْ تهلَّلَ وجهُهُ رضًا، وراقتْ لهُ الفكرةُ:

- بلَى أيُّها الملكُ.

فقالَ لهُ الملكُ :

- فاخترْ منَ الرجالِ العُلماءِ المُحبينَ للأسفارِ مائةً، ومعَهُم المُصوِّرونَ منَ الرسَّامينَ، يرسمُونَ لهم ما يُشاهدُونَهُ من معالمِ الأرضِ. ويجمعُونَ معًا ما لم يصلْ إلى يديكَ منَ الكُتبِ عن بلادِ الدُّنيا. ولا تحملُ همًّا للمالِ. ستكُونُ لديكَ مادةُ كتابِكَ بعدَ سنينَ عشرٍ أو تزيدَ، وسيكُونُ لدَيّ ما أُريدُهُ منْ معارفَ يحتاجُها المُلوكُ عَن أُممِ الأرضِ، ودُولِها، ومُلوكِها، وثوراتِها، وطُرقِ المُسافرينَ، والمسافاتِ بينَ الأقطارِ والمدائنِ.

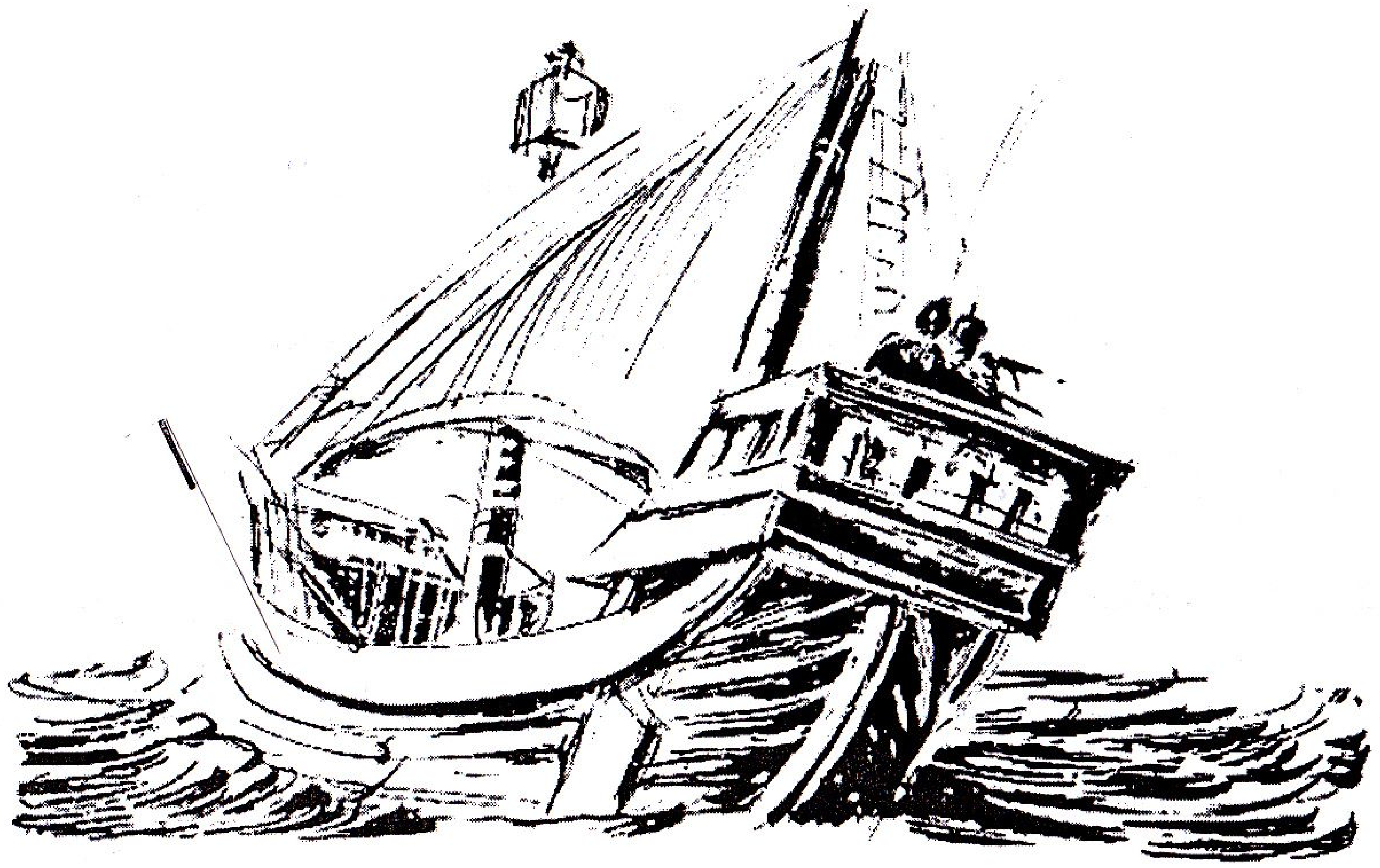

أوَّلُ بعْثَةٍ علْمِيَةٍ

وعكفَ الشَريفُ الإدريسي أسَابيعَ، يَختَارُ الرجَالَ، وَأسَابيعَ يُدرّبُهم على المُشَاهَدَةِ في أرجَاءِ صقلية، وعَلَى تَصْوِيرِ مَا يرَوْنَه برُسُومِهم. وحينَ اطمأنَّ قَلبُهُ أعطى الإشَارَةَ فانْطلَقَ الرجالُ في البَحْرِ إلى أصقَاعِ الأرضِ. وَربمَا كَانَ هَؤُلاَءِ الرجَالِ أوّلُ بَعْثَةٍ علمِيَةٍ تَجُوبُ ممَالكَ العَالَمِ الوَسِيطِ في القَرنِ الهجريّ السَادسِ، الميلاديّ الثّاني عَشرَ.

ولَمْ يَعُدْ للشَريفِ الإدريسيّ في نهَاراته من هَمٍّ، سوَى السُّؤَالِ عَن البَريدِ القَادمِ منْ رجَالِ بعثَتِه، تَحْمِلُهُ السفُنُ القَادمةُ إلى صقليَّةِ من مَوَانِي البحَارِ.

وفي كلِّ لَيلَةٍ، تَحينَ ساعَةَ لِقَائِه بالمَلكِ رُوجرَ الثّاني، فيَذْهبُ إليه علَى بَغْلته، فيُجدُ الملكَ في انتظَارِه في مَجْلسِه، فينَهضُ إليه مُرحّبًا ومُعَانقًا، ويأبَى حينَ تَحِينُ لَحظةُ الافتِرَاقِ إلا أَنْ يُودّعُه بنفسِه إلى بَابِ قَصْرِه.

وتَمُرُّ السنينَ، وَالإدريسي يَجمَعُ مَعَارِفَ رجَالِه، ويُرَتِّبُهَا ويُبَوِّبُها، ويُعيدُ صيَاغتَها، ومَا تَزالُ مُهمَةُ رجَالِ البعثَةِ مُستَمرةً، وَرسَائلهم تَفدُ إليهِ، وَمَعهَا مَا حَصَلُوا عَليهِ من كُتُبِ التَاريخِ والجُغرافيَا.

الثِمَارُ

أثمَرتْ جُهُودَ الإدريسي وَرجَالُ بعثَتِه كتابًا ضَخمًا عُنْوانُهُ: "نُزْهَةُ المُشْتَاقِ في اخْتِرَاقِ الآفَاقِ"، وَهُو الكِتَابُ الذي طَارَتْ به شُهرَتُه بين عُلَماءِ الشَرْقِ وَالغربِ مِن الجُغْرافِيِّين، علَى مَرِّ العُصُورِ.

وَزوَّدَ الإدريسي كتابهُ بخَريطَة عامَّة للأرضِ، وَبِسبعَة خَرائطَ تُمثِّلُ أقاليمَ العالمَ السبْعة المعرُوفَة آنذاكَ. وَرسَمَ في خَرائطِهِ بِدقَّة الشَواطئ والأنْهارِ.

وزادَ الإدريسيُ في خَرائِطِه، فَقسَّمَ كلاًّ منْ الأقاليمِ السبعَةِ إلى عَشرةِ أقْسَامٍ، تَتجهُ منَ الغربِ إلى الشرقِ، معَ خُطوطٍ الطُّولِ، ووَضعَ لها مُجتمعةً سَبعينَ خريطةً أُخرَى.

وَفي كُلِّ هَذهِ الخَرائطِ، حَرصَ الإدريسيّ العَبقريُّ على استْخدَامِ خُطُوطِ الطّولِ والعرضِ، في تَحديدِ الأماكنِ والمَواضعِ، والمَسَافَاتِ، التي وَضعَ أسَاسُها "الخُوارزمِيّ" أبُو الرياضيَات، مثلَما فَعلَ العَالمُ "بطلَيمُوس" من قَبْله. وكانتْ خُطوطُ الطُّولِ والعَرضِ قَد أهْمِلَت في عَملِ الخَرائطِ بَعدَ الخُوارزمِي، فجَاءَ الإدريسيّ وأحيَاها، وأكّدَهَا إلى الأبَدِ.

ومنْ بَينِ هذهِ الخَرائط، خريطةٌ هَامّةٌ للإدريسي صَوَّر فيهَا مَنابعَ النيّلُ العُليَا، آتيةً منَ بُحيرات جَنُوبيّ خَطِّ الاستْواءِ وكَانَ الجُغرَافيُونَ قَبْلهُ يتخبطُونَ في وصفِ منابعِهِ، وتعليلِ فيضَانه، مُنذُ أيّامِ المُؤرخ "هيرودُوت".

وفي هذه الخَرائط جَاءَ اعترَافُ الإدريسي، بِكُرويّةِ الأرضِ، تَتْويجًا لعلمِ المُصوّرَاتِ (الخَرائط) الجُغرافيَة في العَصرِ الوسيطِ. وصَارتْ هذه الخرائطُ نمُوذجًا لأهمَّ أطلسٍ مَأثُور في علمِ رَسمِ الخَرائطِ العَربية، بل وَأهمَّ أثرٍ لعلْمِ الخَراطِ الجُغرافيَة شَرقًا وغربًا، في العَصرِ الوَسيط.

كُرَةٌ مِنْ فِضَة

كانتْ قد مَضَتْ في إعدَادِ مَادّةِ كتابِ "نُزهةُ المُشتَاقِ" وخَرائطه خمسَ عَشْرَةَ سنَةَ. وقدّمَ الإدريسِي كتابهُ إلى صَديقه المَلكِ رُوجرَ الثَّاني، وهُو على فِراشِ مَرضه، يُعاني في العَامِ الأخيرِ منْ عُمرِهِ من مَرضٍ عضالٍ (مُزمنٍ) فراقَ لهُ، وفرحَ به.

وعَرض الإدريسيّ علَى المَلكِ رُوجرَ الثانِي، أنْ يَعملَ لهُ نَموذجًا مُجسّمًا لكُرة أرضية، علَيهَا أقَاليمَ الأرضِ بَارزةً، وأنهَارَها وبحَارها غائرةً، وكَانَ رُوجر صَاحبَ خَيالٍ، فَتخيّلَ كُرةَ الإدريسيّ من الفضَّة عَظيمَة الجرْمِ، ضَخمَةَ الجسمِ، قَائمَةً في بُستانِ قَصره، تسْتطعُ فوقَها الشَمسُ طَوَالَ النهَارِ، وتَنعكسُ عليه أضواءَ القمَرِ والمصابيحَ طَوالَ اللّيلِ، وتروعُ ببَريقهَا النَاظرَ لهَا من بَعيدٍ، وتكونُ أثرًا خالدأ لذكرَاه، بعدَ وداعِه للدّنيَا.

وأعطَى الملكُ للإدرِيسي أربعةً وأربَعينَ ألفَ درْهمٍ وثمَانمائة درهَمٍ، من الفِضَّةِ، ليَصنعَ له بهَا كرةً أرضيَةً فَضِّيَةً.

وأمَرَ الإدريسيُّ صاغةً "بالرمِ" فصبُّوا فيهَا صُوَرَ قارات الأرضِ بأقاليمِها وبحَارِها، وأنهَارِها، وطُرقِها ومَوانيها، وخُطوطِ طُولِها وعَرضِها. ونَهضَتْ كُرَةُ الإدريسِي قائمةً في بُستَانِ القَصرِ المَلكِي.

ورَأى المَلكُ رُوجر، من نَافذَةِ غُرفته، وهُو علَى سَريرِه، الكُرةُ الأرضيةَ الفضّيةُ، تَتألَّقُ في ضياءِ الشَّمس ببستَانِ قصره، فصاحَ دهشةً وتأثراً وفرحَةً، وكانَ الإدريسِي واقفاً إلى جانبه، فقالَ لهُ الملكُ:

– لمْ أكُنْ أتصوَرُ أنَّنا نَعيشُ على أرضٍ مثلَ هذه الكُرة، حتى رَأيتُها باهرَةً أمامَ عيْنيّ.

فضَحِكَ الإدريسيُّ سَعيداً، وقالَ للمَلك:

– إنَّ العربَ في الأندلسِ ومصرَ، يُعلّمونَ الأولادَ في المَدارسِ على كُراتٍ أرضيَةٍ مجسمة، مثلَ هذه الكُرة.

حَقائِقُ وَخُرافاتٌ

وعَكَفَ النسَّاخُون عَلَى نَسْخِ كتاب "نُزهَة المُشتَاقِ" وخَرائطِه، وأشَاعهَا الورَّاقُونَ والعُلماءَ والمُسافرُونَ في أرجَاءِ الأرضِ.

كانَ كتَابُ "نُزهَة المُشتَاقِ" تجميعًا وافيًا لمَعارفِ الأقْدمِينَ الجُغْرافيةَ مع المَعارِف المُتداوِلَة في عَصْرِه، معَ المَعارفِ الجَديدةِ التي أضَافَهَا هُو مِن خِلالِ مُشاهَداته، معَ المَعارفِ التي جمَعها عُلماء بِعثَتِهِ العِلميَّة ورَسّامِيها، مِن أقْطَارِ العَالمِ الوَسيطِ، وأقاليمِه.

وكانَ الإدريسيٍّ أمينًا في نِسْبَةِ مَا أخَذهُ مِن المَعارِفِ الجُغرافِيةِ القَديمَةِ إلى ذويهَا وأصحَابِها من العَربِ واليُونانِ والفُرسِ.

ولم يخْلُ كتاب "نُزهَة المُشْتَاقِ" من روايَةِ بَعضِ الخُرافَاتِ التي نَقلَها المؤلِّفُونَ والرحّالة عن الرُّواةِ أصحَابِ الحكَايَاتِ، مِثلَ حكايَاتهم، عنْ فيلة الهندِ الإناثِ التي تلدُ أولادُهَا فِي المِياهِ الرَّاكِدة، وعنْ شَجرةِ الوَقواقِ التي تُثمرُ أشجَارهَا نساءً بدلاً من الفَاكهَة، وغيرها من الحكايَاتِ التي أسرفَتْ في سرْدِها كُتبُ العَجَائبِ والغرائب العَربيَّة،

مما يُمكنُ قبُوله كتُراث في الآدَاب الشَعبيّة لأممِ الأرض، ولا يَتسعُ له صدرُ كتَابٍ من كُتب العلمِ. وكَانَ الإدريسي يَتوقَّفُ عندَ بعضِ هذه الحكايَات، ليَذكُرَ أنَّهَا مما لا يَقبلُهُ العَقلُ، ولعلَّه حَرصُ على نَقلِها وتَدوينِها في كتابه من قُبيل الإستطْراف، وتَخفيفِ جَفافِ المعلُوماتِ العِلميَّة، طلبًا للتَرويحِ عن القَارئين.

ولمْ يَقفْ الإدريسي في كتابه عَاجزًا، أمَامَ قُصُور المعلُومات إلاَّ في المعَارِف التي أوْردَهَا عن الهِنْد وأطرَاف آسيَا الشَّرقيَّة، وجنُوب أفْرِيقيَا، فاكتَفى فيمَا ذكرَهُ عنهَا بنقلِ مَا روَاهُ الرُّواةُ، ومَا كَتَبه السَابقُونَ.

وفي كتاب "نُزهةُ المُشتاقِ" جاءتْ أوصافُ الإدريسي للبلادِ متقصيّةً، تتبّعُ تاريخَ البلدِ الذي يكتُبُ عنهُ، وعُمرانَه ومُجتمعَهُ البشَري، وحَالته الاقتصادية، فهُو في كتَابه مُؤرّخٌ وجُغرافيٌّ في وقتٍ واحدٍ، يَتحدَّثُ عنْ تَاريخِ البَلدِ، وجنسِ سُكّانه، وعمارتِه، ومَعابدِه، وأسْوَاقِه، وحمَّاماتِه، وأبراجِه، وتجارتِه، وغلاَّتِه، وَمعادنه، ونَقْلِ الأخْشَابِ في مياه الأنهَارِ بكُتلِهَا، دُونَ شَحنِهَا فِي مَراكبِ، مثلَمَا يَتحدَّثُ عَنْ جُغرافيتِه الطّبيعيَّة.

أَوصَافٌ مِنَ المدَائِنِ

عنْ مَدينَةِ "قَلْصة" الإسبانيَّة، كَتبَ الإدريسيّ يَقُولُ: "وقَلْصَة حصْنٌ منيعٌ، يَتَصِلُ به أجْبلُ (جبالٌ) كَثيرةٌ، بهَا شَجرُ الصّنَّوبرِ الكَثيرِ، ويُقطعَ بهَا خَشبُه، ويُلقى في المَاءِ فيَحملُهُ إلى "دَانيةَ"، وإلَى "بُلَنْسية" في البَحرِ. وذلكَ أنهَا تَسيرُ في النَّهرِ من "قَلْصة" إلى جَزيرةِ "شقَر". ومنْ جزيرةِ "شقَّر" إلى حصْنِ "قَالْييرة"، وتُفرغُ هُناكَ على البَحرِ، فتُملأ منهَا المَراكبُ .. ولا تزالُ عَادةً إرسَالِ الخشبِ في النهرِ، إلى جَزيرةِ "شقَّر" إلى "قَالْييرةِ" قائمةً إلى يومِنَا هذَا ..".

ويَكتُبُ الإدريسي في كتابِه عنْ مَيْلِ اليهُودِ للعُزلة، وتكتُّلهم في أحياءٍ ومدنٍ، فيقُولُ:

"ومَدينَةُ "أليسَانَة" بالأندلس هي مَدينةُ اليَهُودِ، ولهَا ربَض (نَاحية) يَسكنُهُ المُسلمُون. واليَهُودُ يَسكُنونَ بجوْفِ المَدينة، ولا يُداخلهم فيهَا مُسلمٌ البَتَّةَ، ولليهود بهَا تحذُّرٌ وتَحصُّنٌ".

ويَصفُ الإدريسِّي مَدينَةَ "رُومَا"، وقدْ زارَهَا أثناءَ مُقَامِهِ بصَقلِّيةِ، فَيقُولُ:

"رُومَة على جَانبَي نَهْرِ الصّفْرِ (التّيبرِ) وهيَ مَدينَةٌ مَشهُورَةٌ، وَمقرٌّ خليفةُ النَصارَى المُسمَّى بالبَابَا، وعلَى جنُوبيِّ خُورِ (بحْر) البنَادقَة (الأدرياتيك). ودوْر (طُول) سُورِها أربعَةٌ وعشرُونَ ميْلاً، وهو مَبنيٌّ بالآجُرِّ. ولهَا وادٍ يشُقُّ وسَطَ المَدينَةِ، وعَليه قنَاطرُ يُجَاز (يَجتاز) عليهَا من الجهَةِ الشَرقيَّةِ إلى الغَربيَّة. وامتدَادُ كَنيسَة رُومَة سُتمَائة ذراعٍ في مثله، وهي مَسقَّفَة بالرَصَّاص، ومَفرُوشَةٌ بالرُّخَامِ، وفيهَا أعمدَةٌ كَثيرَةٌ عَظيمَةٌ. وعلَى يمينِ الدّاخلِ من آخرِ أبوابها حوضُ رخامٍ عظيمٍ للمَعمُوديَّة، وَفيه ماءٌ جَارٍ أبدًا. وفي صَدرِ الكَنيسَة كُرسيٌّ من ذَهبٍ يجلِسُ عَليه البَابَا. وتَحته بابٌ مُصفَّحٌ بالفضّة، يُدخلُ منه

إلى أربعَةِ أبوَاب، واحداً بعدَ آخر، يَفضِي إلى سِردَابِ فيه بُطرسِ حوارِيِّ عِيسَى".

صيدُ اللؤلؤِ

ويَصِفُ الإدريسِي في كِتابِهِ صيدَ اللُؤلؤِ في جزيرَةِ "أوَال"، فَيقولُ:

"وأهَمُّ جُزُرُ البَحرَينَ جزيرَةُ "أوَالُ". وفِي هذهِ الجَزيرَةِ يَسكنُ غَاصةُ اللُؤلُؤ، في المَدينَةِ التي يَصلُ إليهَا التِّجارُ من جَميعِ أنحاء الأرض، ومعَهم المَالُ الوَفيرُ، ويَترَقبُونَ شهوراً طوالاً، مَوسمَ الغَوْص، ويَستأجرُ التُجارَ الغَاصةَ مُقابلَ جعلِ (أجْر) مَعلُوم، يتفاوتُ مع جوْدةِ الصيْد، واعتقَاد التُجار بمَهارَةِ الغَاصة، ويكُونُ الغوصُ في أغُشت (أغُسطُس) وشُتَنْبَرَ (سبتمبر) وقبلَ هذاَ إذَا كَانتْ المياهُ صافيةً. ويَصطحبُ كلّ تاجرٌ الغوَّاصَ الذي اكْترَاهُ (استَأجرَه) وتخرُجُ المَراكبُ جماعةً من الميناءِ فيمَا ينيفُ (يزيدُ) على مَائَتي دُونَج (سَفينَة صيْد) وهي فُلكٌ (سفن) أكبرُ منْ الفُلكِ العَادِي، ويُقسِّمُ التُجارُ سَطحَها إلى خَمسُ أو ستَّ بَلَنْجَاتٍ (أقسَام) مُنفصلةِ، ومَعَ كلُّ غوَّاص رَفيقٌ مُساعِدٌ، اسمُه

"المُصَفِّى"، له نصيبُ في الكِراءِ (الأجْر) ويَخرجُ مع الغَاصَةِ أدلاَّء حَذَّاق، يعرفُونَ المَواضعَ، لأنَّ للأصداف مَواضعُ تغشاهَا، تذهَبُ إليهَا، وتَخرجُ منهَا حسبَ الوقت، وتَعرفُهَا، فإذَا خرجَ الغَاصةُ من جزيرَةِ "أوَالِ" قادَهم الدَّليلُ، حتَى إذَا وصَلُوا إلى المَواضعِ المَعلُومة خَلعَ الدليلُ مَلابسَه، وغَاصَ، ونظرَ، فإذَا وجدَ المكانَ مناسبًا خرجَ، وأمرَ بطيِّ الشّرَاعَ، ورَمْيِ الأنَاجرَ (الأهَلاب) وكذَلكَ تفعلُ بَقيَّةُ الدَّوانجِ (المَراكب) ويبدأُ الغُوَّاصُونَ في العَملِ".

ويُواصِلُ الإدريسِي وَصفَ عَمليَّةُ الصَّيد، مُنذُ أن يَسدُّ الغوّاصُ خيَاشيمَهُ، ويَحملُ، سكّينَهُ وكَيسَهُ، والحَجَرَ الثَقيلُ المُعلّق بخيطِ رَفيعِ مَتينِ، إلى أنْ يَجذبَ الخيْطَ فيَسحَبَ منْ قَعرِ البَحرِ إلى أعلَى، حَاملاً صَيدهُ منْ الأصْداف، فيلبسَ مِلابسَهُ وينَامَ، ويأخُذ المُصفَّى في فَتحِ المحارِ بحضُورِ التاجرِ الذي يَجمعُ اللُؤلؤِ، ويزنُه، ويُسجِّلهُ في زِمَامِ (دفترِ) ويأكُلَ الجَميعُ قَبيْلَ المَغرِبِ، وينَامُونَ طولَ اللّيلِ، استعداداً لعملٍ شاقٍ مقبلٍ، في يومٍ جديد.

المُغَامِرُونَ الثَّمَانِيَةَ

ويَروي الإدريسي حكايَةً غريبَةً عَنْ فتيَةٍ خَرجُوا مَدينةِ "لِشْبُونَةَ" في مُغامرةٍ بحْريةٍ لكشْفِ بحرِ الظُّلمات (المحيط الأطلَسِي) وما ورَاءُه من شُطآنٍ، فيقُولُ في "نُزهةِ المُشتَاقِ":

"مِنْ مدينَةِ لِشْبُونَةَ كَانَ خروجُ الفتيَةِ في رُكوبِ بَحرِ الظُّلُمَات، ليَعرفُوا ما فيه، وإلى أينَ انتهاؤه.. ولَهُم بمَدينةِ لِشْبونَة، بمَوضعٍ قُربَ "الحَمَّة" دَرْبٌ مَنسُوبٌ إليهم إلى آخرِ الأبَد، وذَلكَ أنَّه اجتمَعَ ثمَانيةُ رِجالٍ، كلُّهم أبناءَ عَمٍ، فأنشَأُوا مركبًا حمَّالاً، وأَدخلُوا فيه منَ المَاءِ والزادِ ما يكفيهم لأشهرٍ. ثمَّ دَخلُوا البَحرَ أولَ طاوُوس (هُبوب) الرِّيحِ الشرقيَةِ، فجرَوا بهَا نحواً منْ أحَدَ عشَر يومًا، فوَصلُوا إلى بَحرٍ غليظِ المَوجِ، كدرِ الروَّائحِ.. قَليلُ الضَّوءِ فأيْقَنُوا بالتَلف، فرَدُّوا (حوّلوا) قِلاعَهُم في الجهةِ الأخرَى، وجَروا في البحْرِ في نَاحيةِ الجنُوبِ اثني عشرَ يومًا فخرجُوا إلى جَزيرةِ الغنَمِ، وفيهَا من الغنَمِ مالاَ يأخذُه عدٌّ ولا تَحصيلَ، وهي سَارحةٌ لا رَاعيَ لهَا، ولا نَاظرَ إليهَا. فقَصدُوا الجزيرَةَ فنزلُوا بِهَا، فوجَدُوا عينَ ماءٍ جاريَةٍ، وعَليهَا شَجرةُ تينٍ بَرِّيٍّ فأخَذُوا من تِلكَ الغَنَمِ فذَبَحُوهَا، فوجَدُوا لُحومَهَا مُرَّةً لا يَقدرُ أحدٌ على

أكلِها، فأخَذُوا جُلُودَهَا وسارُوا مع الجَنُوبِ اثنَيْ عشرَ يومًا إلى أنْ لاحَت لهُم جَزيرَةٌ، فنظَرُوا فيهَا إلى عمارَةٍ وحرْث، فقصَدُوا إليهَا ليَروْا ما فيهَا، فمَا كَانَ غيرَ بعيد، حتى أُحيطَ بِهم في زَوَارِقِ هُناكَ، فأخَذُوا وحمَلُوا في مَركبِهِم إلى مَدينَةٍ على ضفَّةِ البَحرِ، فأُنزِلُوا بها في دَار، فرَأُوا رجالاً شُقرًا، زُعرًا شُعورِ رُءوسِهِم، شُعورُهم سَبْطَةٌ (مُرسَلة). وهُم طوالُ القُدود، وبِنسَائِهم جَمالٌ عجيبٌ، فاعتَقلُوا منها في بيتٍ ثلاثَةِ أيام، ثمَ دخلَ علَيهم في اليَومِ الرابعِ رجلٌ يتكلّمُ اللسَانَ العَربيَ، فسَأَلَهم عن حَالِهم، وفيمَا جاءُوا، وأينَ بَلدُهم، فأخبَرُوهم بكلِّ خبرِهم، فَوعدَهم خيرًا، وأعلَمهُم أنّه تَرجُمانُ المَلك. فلَمَّا كانَ في اليومِ الثّاني من ذلك اليومِ أحضرُوا بينَ يَديَ المَلك، فسأَلهم عمَا سأَلَهُم عنه التَّرجُمَان، فأخبَرُوهُ بمَا أخبرُوا به التَّرجُمان بالأَمْسِ، من أنَّهُم اقتَحمُوا البَحرَ ليَروا ما بهِ من الأخبَارِ والعَجَائِبِ، ويقفُوا على نهَايَته. فلَمَّا علمَ الملكُ ذَلكَ ضَحكَ، وَقالَ للترجُمان: خبِّرَ القومُ أنَّ أَبي أمرَ قومًا منْ عبيده بركوبِ هذا البحرِ، وأنَهم جرُوا في عرضِه شهرًا، إلى أن انْقطَعَ عنهُم الضوْءُ وانصرَفُوا من غيرِ حاجَةٍ ولاَ فائدةٍ تُجدي، ثمَّ أمرَ الملكُ الترجُمانُ أنَ يَعدَهُم خيراً، وأن يُحسنُ ظنَّهم بالمَلك، ففعَلَ. ثم صَرفَهُم إلى مَوضعِ حَبسِهم، إلى أن بدَا جَريُ الرِّيحِ الغَربيَّةِ،

فعمَّرَ بهم زَوْرَق، وعُصِبَتْ أعيُنهُم، وجَرى بِهم في ثَلاثَةِ أيَامٍ بليَاليهَا، حتَّى جيءَ بنَا إلى البرِّ، فأُخْرِجنَا، وكُتِّفنَا إلى خَلف، وتُركنَا بالسَّاحِلِ، إلى أن تضَاحَى النَّهارُ، وطلعتِ الشّمسُ ونحنُ في ضَنْكٍ وسُوءِ حَالٍ من شدةِ الأكْتَاف، حتى سَمِعْنَا ضَوْضَاءَ وأصْوَاتَ ناسٍ، فصحْنَا بأجمَعنا. فأقبلَ القومُ إليْنا فوجَدُونا بتلكَ الحالِ السَّيِّئة، فحلُّونَا من وثَاقنَا، وسَألُونَا، فأخبَرْنَاهُم بخَبرِنَا، وكَانُوا بَرَابِر. فقال لنا أحدُهم: أتعلمُونَ كم بَيْننَا وبيْن بَلدكُم ؟ فقُلنَا: لاَ. فَقال: إن بَينكُم وبَينَ بلدكم مَسيرةَ شَهريْن. فقالَ زَعيمُ القَوْمِ: وأسفى. فسُميَ المكَانَ إلى اليَومِ "أسفَى"، وهُو المَرسَى الذِي في أقْصَى المَغْرِب..".

وهذه القصَّةُ روَاهَا المسعُودي في كِتابِه "مُرُوجُ الذَّهَبِ"، قبلَ الإدرِيسِي بِقَرْنين منَ الزَّمانِ.

العُزْلة

عَام ألف ومَائة وأربعةٍ وخَمسين مِيلاديَة، أسلَم المَلك رُوجر الثاني رُوحَه إلى خَالقها، وحَزن عَليه الشريفُ الإدريسي حُزنًا شَديدًا، ألزمَهُ بيتهُ شُهورًا.

وتَولَّى المَلك من بَعد أبيه المَلكُ "غَاليام الأوَلُ". وخَشيَ الإدريسي على مَكانته في بلاط القَصْر النُورمَانِي، فألّفَ كتابًا في الجُغرَافيا، هو "رَوضُ الأُنْسِ ونُزْهَة النّفْس"، وهُو الكتَابُ المعروفُ باسم: "المَسالك والمَمالك". وكان هذا الكتابُ تلخيصًا لكتابه: "نُزهَة المُشتَاق". وأهْدَى الإدرِيسي كتَابُهُ إلى المَالكِ "غاليامِ" تقرّبًا إليه.

ولمْ يمُدَّ المَلكَ غَاليامُ يدَه بسوءٍ إلى الإدريسِي، لكنَّ الإدريسِي لم يعُدْ بنفْسِ المَنزلة التي كَانتْ لهُ في القَصرِ النُورمَاني، فاعتكَفَ في قصْره بضْعَ سنينَ، ألّفَ فيهَا كتَابيه الآخَرَيْن: "الجَامعُ لصفات أشتَات النَبات"، وهو الكتَابُ الذي أفَادَ منهُ "ابنُ البَيْطار" فَوائدَ كُبْرى، و: "الأدويَة المُفرَدَة"، وهو كتابٌ أشَارَ إليه ابنُ أبي أصيبعةَ في ترجمتهِ لسيرة الإدريسي، بمَوسُوعَته "طَبقاتُ الأطبّاءُ". وما يزالُ هذَا الكتَابُ من الكتُبِ العَربيةِ المفقُودَة، فلمْ يعثَرْ عليه أحدٌ بعْد. وأخذَ يقْرضُ الشّعْرَ.

ثَورةٌ على القَصْرِ

ومضَتْ ستٌّ سَنوَاتٍ بعد رَحيلِ المَلكِ رُوجر عن الدّنْيَا، وجَاءَ عَامُ ألفٍ ومَائة وستِّينَ مِيلاديَة، وشَبَّتَ في "بَالرم" ثَورةٌ

عَارمَة، ضدَّ المَلك "غَاليَام"، نَهبَ فيهَا الثُّوار القَصرَ النُورمَاني، ودَمَّرُوا كُرَةَ الإدريسِي الفِضيَّة، وأخذُوا أجزَاءهَا أمَام عينَيْه، وكَان قد بلغَ من العُمرِ إحدَى وستينَ سنةً.

عادَ الإدريسي حَزينًا إلى قَصْرِه يُفكِّرُ في العَودة إلى سَبْته، ورُبما كان قَد عادَ إليها، ورُبمَا بَقِي في صِقَلية، فلاَ أحَد من المُؤرخِين يَعرُف وجْهَ الحَقيقَة.

وعكَفَ الإدرِيسِي مرةً أُخرى على كِتابِه "الجَامعِ لصفَاتِ أشتَاتَ النبات" الذي سَاق فيه أنوَاع الأشجارِ والثِّمار، والحشَائشِ والأَزْهَار، والحَيوانَاتِ والمَعادنَ، وأخذَ يُرتِّبها على حُروف أبجَد هَوّز، وساقَ مُعجمًا لأسمَائهَا بالسّريَانيَة واليُونَانية والفَارسيَةِ واللاتِينيَةِ والبَربَريَةِ، وكأنَّه كان بهذهِ اللُّغَات من العَارفِين.

تَجَاهُلٌ وإِدَانَةٌ

وطَوالَ قُرُونٍ عَانَتْ ذِكرى الإدرِيسِي الكَثيرُ من تجَاهلِ المُؤرخينَ العَرب، وبينهُم مَعاصرُوه، لفَضْلِه، وربَّما تَحدَّثُوا عن بَعضِ أعمَالِه مُتجَاهلين ذِكر اسمَهُ، بِقولِهم: "صَاحبُ نُزهةِ

المُشتَاق"، وبَينَ هَؤلاءِ المُتجَاهِلينَ للإدرِيسي كان المُؤرخِ "المقْريزي"، و"يَاقُوتُ الحَمَوى"، ولم ينصفْه حقًّا بذكرِ اسمه سوَى "إبن خَلدون"، والأديبُ الشَاعرُ "صَلاحُ الصفَدى" في تَرجَمتِه لهُ بكتَابِه: "الوافِي بالوفَياتِ".

ويُرجعُ المُستشرقُ الفرنسي "كاتَرْمير" السَبَبَ في هذا التَجاهُلِ إلى أنَّ المُسلمينَ لم يكُونُوا رَاضين عن اتصَال الإدرِيسي بالمَلك النُورمَاني رُوجَر الثانِي، ولا عَن دُخُوله في خِدمَتِه. وأرْجَعَ آخرُونَ السَببَ في هذا التجاهُل إلى أنَّ الإدريسي قد عاشَ في رِعايَةِ النّورمَان، في وقْتٍ كان فيه الصَليبيُّون والفرنَجة يشُنُّون حُروبَهم الشَّعواء على المُسلِمينَ في المَشرقِ، ويَعملُونَ على طَردهم من الأندَلُس. وكان من أهمَلُوا ذكْرَا الإدرِيسي يعرفُونَ اسمَهُ، ويُقدّرُونَ فَضلَه، ولا ينكرُون عليه عِلمَه.

أولُ طَبعةٍ عربيةٍ

وفِي الوَقت الذِي أهْمَلَ فيه العَربُ عَالِمهم، عَرفَ الغَربيُّونَ قَدْرَهُ في الجُغرَافيا وعَملِ الخَرائطِ وأدَبِ الرحَلاتِ، فَترجَمُوا

"نُزهَة المُشتاقِ" إلى لُغَاتِهم، وأعَادُوا نَشر خَرائطِه، وحقّقُوا جوانِب "النُزهَة" المُتعَدّدة، وقَارنُوا بينَه وبينَ غَيرِه من كبَار العَلماءِ الجُغرافيين في الغَرب، وأوّلهم "بَطليمُوس".

وكان الألمان أكثر الأوربيين اهتمامًا بالإدريسي كتابةً عنه، ونشرًا لخرائطه، ولأجزاء من كتابه، ويلحق بهم عديدٌ آخرون، من المستشرقين الأسبان، والروس، والفنلنديين، والفرنسيين، والسويديين، والايطاليين الذين كان لهم الفضل في إصدار أول طبعة من كتاب "نزهة المشتاق" في مطبعة "الميدتشي" بروما، في ختام القرن الميلادي السادس عشر، وهي أقدم طبعة أوروبية ظهرت لهذا الكتاب، بحروف عربية، تلتها بالغرب، في القرون التالية، طبعات أخرى لأجزاء من "نزهة المشتاق".

في القرن العشرين

وفي العصر الحديث وجد الإدريسي بين العرب من ينصفه، بعد أن توالى رحيل العلماء العرب إلى الغرب، وتتابعت هجرة العقول إلى العالم الجديد. ولعل خير تقدير للإدريسي ناله من العرب، كان على يد العالم الشيخ "عبد المتعال الصعيدي"، الذي كتب عنه كواحد من المجددين في الإسلام، بما قدمه لعلم الجغرافيا والخرائط من أصالة وابتكارات، جعلته بحقٍّ أبًا للجغرافيين العرب.

وقد أفرد الأديب الراحل "محمد عبد الغني حسن" كتابًا عن "الشريف الإدريسي"، ساق فيه ما كتبه المستشرقون عنه، وعن كتابه "نزهة المشتاق" وعن خرائطه، وعدوه أفضل من ألف في الجغرافيا في العصور الوسطى، وبعضهم لا يزال يعتبر كتابه أفضل مرجع إلى يومنا عن بعض أجزاء من الأرض، وبعضهم يذكر أنه ليس هناك مؤلف جغرافي حفظ لنا معلومات وفيرة ذات قيمة كبرى، عن أوروبا الشمالية والغربية، واسكوتلندا، وسواحل بحر الشمال، وبلاد البلطيق، وبولندا، ورومانيا، وشبه جزيرة البلقان، أرضًا وشعوبًا، واقتصادًا وحياةً، مثلما فعل الإدريسي. وبعضهم يذكر أن كشف أمريكا كان متعذرًا بدون ارتقاء علم الجغرافيا على يد الإدريسي خاصةً، بفضل خرائطه، وآرائه النظرية عن الكرة الأرضية.

●

وفي العراق، بذل المجمع العلمي العراقي ببغداد جهدًا كبيرًا، لإحياء خريطة الإدريسي عن الكرة الأرضية، بإعادة رسمها وطبعها، عام ألف وتسعمائة وواحد وخمسين ميلادية، نقلاً عن خمس نسخ مصورة لهذه الخريطة من كتاب "نزهة المشتاق"، في مكتبات باريس، واكسفورد، واستانبول، وروما.

•

وما تَزالُ صيْحَة المستشرقِ "جُولدتسيهر"، تَدعُو العَربَ في كَافَة أقطَارِهم إلى طَبعِ كتابِ "نُزهَةُ المُشتَاق" وخَرائطه المُصَوّرة كاملةً ومحقّقةً، ولَعلَّ هذه المُهمَة هي واحدةٌ من المَهام الكُبرَى في نَشرِ التُّراث، نَدعُو وزَارَات الثّقافَة العَربيَة، والنّاشرين العَربَ، ومُنظمَة الثقَافة العَربيةِ، بالجَامعةِ العَربيةِ للنّهُوضِ بهَا.

•

في عَامِ خمسمائة وستّينَ هجريَة، ألف ومائة وخمسةٍ وستّينَ ميلاديَة، ودَّعَتْ رُوحُ الشَريف الإدريسيّ دُنْيَا البَشَر.

واختلفَ المُؤرخُونَ من بَعده، ولا يَزالُونَ مُختلفينَ، عنْ المَوضعِ الذي وُورى فيه جَسدُ الإدريسيّ الثَّرَى. وسواءٌ أكَانت وفَاتُه في صَقليَة، أمْ في سَبته، فقد توَسَّدَ الشَريفُ الإدريسي، هُنا أو هُنَاك، بَاطنَ أرضٍ جابَ أنحاءهَا طولاً وعَرضًا، كاشفًا النّقَاب عن أسْرَارِهَا.

المطبعة الجديثة
IMAG
للفنون المطبعية
Imprimerie Moderne des Arts Graphiques

10

الإدريسي

أبوالجغرافيا الطبيعية والبشرية عاش في القرن الميلادي الثاني عشر، وأشرف من صقلية على أول بعثة علمية جغرافية عرفتها الدنيا، فجاب رجالها أقطار العالم الوسيط، يجمعون المعارف عن الأرض وثرواتها وأهلها. ووضع أكثر من سبعين خريطة للأرض التى نعيش عليها. وصنع أول كرة أرضية من الفضة. إنها قصة تثير الفخار، يقرؤها الصغار والكبار.

صدر من هذه السلسلة:

1- إبن النفيس	13- إبن ماجد	25- إبن الرزاز
2- إبن الهيثم	14- القزويني	26- تقي الدين
3- البيروني	15- إبن يونس	27- الرازي
4- جابر بن حيان	16- الخازن	28- الكندي
5- إبن البيطار	17- الجاحظ	29- الخليل
6- إبن بطوطة	18- إبن خلدون	30- إبن حمزة
7- إبن سينا	19- الزهراوي	31- الزرنوجي
8- الفارابي	20- الأنطاكي	32- يوحنا بن ماسوية
9- الخوارزمي	21- إبن العوام	33- ياقوت الحموي
10- الإدريسي	22- الطوسي	34- ثابت بن قرة
11- الدمبري	23- الكاشي	35- ابن ملكا
12- إبن رشد	24- الوزان	36- ابن الشاطر

442

© Editions Anep
ISBN: 978-9947-21-329-2
Dépôt légal: 1524-2007